زكي الأرسوزي

أيار ٢٠١٧

زكي الأرسوزي

أوّل من أنطق العربية فلسفة

كتابة: إسماعيل الملحم

الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب - مديريّة منشورات الطّفل
وزارة الثقافـة - دمشق ٢٠١٧م

مدخل

ظهرت فكرة القوميَّة العربيّة في كتابات عدد من المتنوّرين العرب منذ نهايات القرن التَّاسع عشر، واستمرَّ التَّداول بمفهوم القوميَّة والأمَّة والشَّعب منذ بدايات القرن العشرين ولم ينتهِ. ترافق ذلك مع بروز وعي متزايد رافق حالة التَّردّي التي آلت إليها الدّولة العثمانيَّة الَّتي لقّبها الغرب بالرجل المريض. تكاثرت الثورات ضدّ هذه الدّولة خاصة بعد عمليّات التَّتريك الَّتي انتهجتها، وملاحقة النّاشطين من القوميات غير التركيَّة، والتَّضييق عليهم، وفي الوقت نفسه تردّت الأوضاع الاقتصاديَّة في الوقت الذي كانت تتردّى فيه هذه الأوضاع في أكثر المناطق، ومنها المنطقة العربيّة. واستمرّ تنكّر الاحتلال العثماني لحقوق السكّان في أنحاء الدّولة على الرغم من عمليات الإصلاح الَّتي بدأت بالظهور، ولم تشمل المنطقة العربيّة.

أطلّ العرب على القرن العشرين، وهم في حالة من الشَّلل تتخلّلها اختراقات متناثرة هنا وهناك في بلاد الشَّام والمغرب. أخذت هذه الاختراقات المحدودة أصحابها صوب التَّفكير في حال الأمَّة، وفي البحث عن الوسائل الَّتي تخرجها من ضعفها وتخلّفها، فظهرت تحرّكات تطالب بحقوق العرب، كما أخذ يبرز أشخاص متنوّرون يبثّون الوعي بين أبناء أرومتهم، ووُجد من استطاع أن يرى مكامن ضعف الأمَّة وتخلّفها، وأنّ خروجها من حالة الضعف هذه لا يمكن أن يكون خارج الوعي بالروابط الَّتي تجمع العرب وتقويتها. وانبثقت عدّة جمعيّات ونوادٍ تحت مسمّيات مختلفة، تنشر الوعي، وتذكّر بحقوق العرب، في الوقت الذي بدأ فيه نموّ الوعي القومي، وبدأت دوائر الغرب الاستعماريَّة تتدخّل في شؤون الدّولة العثمانيَّة بأساليب وطرائق متنوّعة، منها تفكيكُ الروابط الَّتي تربط أبناء الأمَّة الواحدة.

لم ينتظر الغرب زوالَ الدّولة العثمانيَّة، بل بدأ يستولي على أجزاء من الوطن العربيّ قطعةً إثر قطعة[1] بعضُها بمقايضات مع الدّولة، وبعضها الآخر بالقوّة العسكريَّة. تصرّف سلاطين آل عثمان بالوطن العربيّ، قسّموه لقماً، فخلال قرن واحد صارت بلدان شمال إفريقيا مناطق محتلة، فتنازلوا للغربيين عن كلّ القسم الإفريقي من أرض العرب من طنجة إلى العريش، وتنازل كمال أتاتورك بعد ذلك عن قطرين عربيّين من أقطار المشرق (العراق وبلاد الشَّام) للإنكليز والفرنسيين مقابل استقلال تركيا.

حكم الغرب الوطن العربيّ بالتَّجزئة والتَّخلّف والفقر بالصهيونيَّة وبدونها، ولم يقدّم أيَّة مساعدة له تخرجه من تخلّفه، بل ما انفك يحبط أيَّ تقدّم يبدر من أبنائه.

١ – محي الدين صبحي: الأمَّة المشلولة (تشريح الانحطاط العربيّ)، ص ٤٩.

نفّذ الفرنسيون والإنكليز أبشع أشكال العدوان على الأراضي العربيّة الّتي أُوكلت إليهم بإخضاعها لسلطانهم، وتقسيمها بلاد الرافدين والشَّام، وإعطاء الحركة الصهيونيَّة حقّ إقامة دولة لها في ربوع بلادنا، في فلسطين. كما تنازل الفرنسيون بمؤامرة دنيئة عن لواء إسكندرون عام ١٩٣٨م مع ما رافق ذلك من التَّنكيل بالسكان العرب وتهجير خيرة شبابهم.

المؤامرة على لواء إسكندرون:

بعد احتلالِ القوّات الفرنسيَّة سوريةَ تحت اسم الانتداب، باشرت السلطة المنتدبة إجراءاتٍ من شأنها إضعاف الوطن من خلال تجزئته إلى دويلات يسهل معها اختلاق أسباب تؤدّي إلى زيادة تسلّطها وتحجيم إرادة السكان. كان نصيب لواء إسكندرون أن صيغ له نظام خاص خارج مخطّط سايكس بيكو، تمثّل في عمليَّة سلخه عن أمّه سورية، وتقديمه لقمةً سائغةً للدولة التّركيّة الجديدة.

كان عرب اللواء يشعرون بالمؤامرة الَّتي تُحاك ضدَّهم، وبالغدر بهم، مع ما كانت الدّولة المنتدبة تبيّته للسوريّين من ملاحقة الوطنيّين الأحرار، وتصفية الثورات الَّتي قامت ضدَّهم في أنحاء مختلفة من الأرض السوريَّة.

أخذ الانتداب يضيِّق على أيّ صوت عربيّ في اللواء ويحاصره، ترافق ذلك مع عمليّات تهجير للعرب، واستقدام عناصر غير عربيّة أخرى. وبدأت سلطة الانتداب بملاحقة أبناء اللواء لتغيير بنيته الدّيموغرافيَّة إسهاماً في خنق كلّ صوت عربيّ ولا سيّما أصوات النّاشطين من أبنائه، ومنعهم من بثّ الفكر القومي العربيّ الذي كان ينتشر بين المواطنين الذين ما عرفوا غير الانتماء إلى العروبة وثقافتها والانتساب إلى سورية وتمسّكهم بها.

نظّم الفرنسيّون استفتاء مدبّراً في الخفاء مشبوهَ الأهداف في أنحاء اللواء ليعطوا لعملهم الخسيس مشروعيَّة زائفة.

نشطت المظاهراتُ في كلّ أنحاء لواء إسكندرون مدفوعةً بمشاعر وحدويَّة غامرة معلنةً عروبة هذه القطعة الغالية من أرض سورية. ويوم الاستفتاء المشين الذي دُعي إليه السكّان اندفعَ شبابُ اللواء وشيبُهُ نحو صناديق الاستفتاء معلنين على رؤوس الأشهاد أنّ اللواء عربيّ، غير عابئين بالسلطات الفرنسيَّة الَّتي كانت تعوق وصولهم إلى تلك الصناديق.

انطلقت حناجر جموع المتظاهرين بنداء العروبة والهتاف بحياة الأستاذ، وبالمبادئ الَّتي كان يعلنها في المدارس والشَّوارع والصحافة. من حكايات ذلك اليوم أنَّ سلطةَ الانتداب أغلقت المساجد في وجه المصلّين لإبعادهم عن التَّجمّع فيها، فما كان من إخوانهم المسيحيّين إلا أن فتحوا لهم أبواب كنيستهم ليمارسوا صلاتهم في الكنيسة، والانطلاق نحو مراكز الاستفتاء والتَّجمّع أمام السجن، منادين بإطلاق سراح الأستاذ

فيها . وثمّةَ حكايةٌ أخرى في اليوم نفسه أنّ فتى كان يتفلّت من الجنود، ويجري مسرعاً للوصول إلى مركز الاستفتاء ليستطيعَ الإدلاء بصوته مؤكّداً عروبةَ اللواء، نالت منه رصاصة شرطيّ غادرة، فاندلقَتْ أمعاؤه أمامه، ولكنّه كان يضمُّها إلى بطنه بيديه، ويصيح سجّلوا صوتي: اللواءُ عربيّ وليعشِ الأستاذ .

على الرّغم من كلّ مشاهد البطولة والحماسة، والتصويت لعروبة اللواء في ذلك الاستفتاء، نفّذت فرنسا أكبر عمليَّة غدر بالوطن السوريّ بأن أهدت اللواء إلى السلطة التّركيَّة، وسلخته رسميّاً عن أمّهِ سورية عام ١٩٣٩م.

كان اللوائيّون ينادون بحياة أستاذهم وباعث الحماسة في صفوفهم قبل الاستفتاء وبعده؛ فمن الأستاذ؟

كلمةُ الأستاذ الَّتي كان يردّدُها المتظاهرون في تظاهراتهم، وسكّان اللواء في سهراتهم ولقاءاتهم، كانوا يقصدون بها معلّمهم، وباعث نهضتهم ووعيهم، إنّه الأستاذ زكي الأرسوزي.

سيرة حياة (الأستاذ) زكي الأرسوزي

(١٨٩٩- ١٩٦٨م)

هو زكي نجيب إبراهيم الأرسوزي، غلبَ لقبُ الأستاذ على اسمه بينَ عرب لواء إسكندرون، وُلدَ في اللاذقيَّة عروس الساحل السّوري عام ١٨٩٩م، أو عام ١٩٠٠م بحسب بعض الذين كتبوا سيرته الذاتيَّة.

والده نجيب اشتغل بالمحاماة، وكان قوميّاً عربيّاً نشطاً، شارك في الانتساب إلى بعض الجمعيّات والنّوادي الَّتي أسّسها الأحرارُ العرب في بدايات القرن العشرين، انتمى في البداية إلى حركة الأخوّة والمساواة إحدى الحركات الَّتي أسّسها عددٌ من النّاشطين العرب إلى جانب عدد من الجمعيّات والنّوادي الَّتي تأسّست في الأستانة، وكانت تدعو إلى إنصاف أبناء جلدتهم العرب، وإعطائهم حقوقَهم في الحريَّة والعدالة والمساواة، إلى جانب أخواتها العربيّات الَّتي كانت تناضل ضدَّ سياسة

التَّتريك والانتقاص من حقوق العرب الَّتي انتهجها الاحتلال العثماني، وبعدها انتمى إلى حزب العربيّة الفتاة. كانت والدة زكي الأرسوزي امرأة فاضلة من مواليد بلدة أرسوز الَّتي تقع إلى الشَّمال الغربي من أنطاكية على ساحل خليج إسكندرون، ومنها اكتسب ابنها لقب الأرسوزي بعد أن شغل فيما بعد وظيفة مدير ناحية أرسوز.

برزت على الأرسوزي ملامح الذكاء في سنوات مبكّرة من حياته؛ يذكر بعض القريبين من أسرته أنّ الفتى زكي، كانت تأتيه أحلامٌ كثيرة، تقلقُهُ، وتشغله في تلك السنوات المبكّرة، منها أحلام يتذكّرها، ولطرافة بعضها كانت تنقلها والدته عنه منذ السابعة من عمره إلى بعض المشايخ الذين يأتون إلى منزلها، ويستمعون إلى روايتها عنه، فعلى الرَّغم من صغر سنّه، كانت تشغله أفكارٌ غير متوقّعة ممّن هم في مثل سنه المبكّرة،

إذ إنّه كان أحياناً يجالس الكبار، ويتدخّل في أحاديثهم، ويجادلهم، يُذكر أنّه غالباً ما كان يجادل هؤلاء المشايخ في موضوعات وجوديّة شتّى (الموت، الأزل، القدر، وغيرها)، وقد وصف الأرسوزي وضعه بين هؤلاء الكبار، قائلاً:

كنت بينهم كالدّيك المفلفل الذي يدوّخهم من كثرة حركته وخفّته.

كان يبدو انطوائياً في سلوكه، ويحلو له ارتياد بعض الأماكن الخالية إلى جانب ما كان يظهر في سلوكاته وحركاته من علامات الذكاء وهو لم يزل طفلاً، وكان يبدو متأمّلاً، يحاكي أحلامه وعالمه الدّاخلي.

تعلّم الأرسوزي في إحدى مدارس اللاذقيَّة، ثم انتقل مع والديه من اللاذقيَّة للإقامة في مدينة أنطاكيَّة في لواء إسكندرون، وتابع الفتى زكي تعليمه في ثانويّتها

إلى حين تعرّض والـده للاعتقال عـام ١٩١٤م، ومن ثمّ النّفي إلى قونية في الأراضي التُّركيَّة عام ١٩١٤م؛ فانتقل زكي مع العائلة إلى تلك المدينة، وحيث انتسب إلى إحدى مدارسها تعلَّم اللغة التُّركيَّة وأتقنها، كما تعلَّم معها اللغة الفرنسيَّة وأتقنها، سافر بعد ذلك إلى بيروت عام ١٩١٩م بعد انهيار السلطنة لينتسب إلى مدرسة اللاييك، فأتقن اللغة الفرنسيَّة. ثمَّ عاد إلى أنطاكيَّة ليُعيّن مدرّساً لمادة الرياضيات في مدارسها، ثم انتقل إلى أرسوز مسقط رأس والدته، ليشغلَ وظيفة مدير ناحيةٍ فيها خلال عامي (١٩٢٤- ١٩٢٥م)، لكنّه عاد إلى أنطاكيَّة من جديد، وعُيّن فيها بوظيفة أمين سرّ دائـرة المعارف (١٩٢٥إلى ١٩٢٧م). وما لبث أن أُوفد عام ١٩٢٧م من قبل وزارة المعارف إلى فرنسا ليدرسَ الفلسفة في جامعة السوربون، الأمـر الذي أتـاح له الاحتكاك مع بعضِ فلاسفة العصر، ويعود متخصّصاً في الفلسفة الَّتي أثّرت في تفكيره، ووسّعت

من آفاق معرفته، وشحنت تفكيره بما ساعده فيما بعد على تطوير أفكاره القوميَّة، وفهم خصائص الثقافة العربيّة، وزاد من قدرته على الكشف عن مشكلاتنا القوميَّة، وعمّق من وضوح نهجه القومي وخصائصه وطموحاته وتطلّعاته.

عاد من فرنسا مجازاً بالفلسفة عام ١٩٣٠م، وعُيّن مدرّساً لمادّتي الفلسفة والتَّاريخ في مدارس أنطاكيَّة. بثّ من خلال نشاطه رؤاه الفكريَّة بين الطلبة ممّا أزعج سلطات الانتداب، فنُقل نقلاً تعسفيّاً إلى حلب أوّلاً ثمّ إلى دير الزور في الفترة ما بين (١٩٣٠-١٩٣٤م). لم تكتفِ هذه السلطاتُ بإبعاده عن أنطاكيَّة، بل أصدرتَ عام ١٩٣٤م أمراً بتسريحه من العمل الوظيفي مسوّغة ذلك بأنّه كان ينشر أفكاراً تتعارض مع سياسات الانتداب الاستعماريَّة، خاصة أنّ أفكاره تلك كانت تلاقي الكثير من الأنصار والمعجبين ولا سيّما بين المثقفين.

كانت عصبة العمل القومي في تلك الفترة تنتشر انتشاراً واسعاً في كلّ أرجاء سورية ولبنان وفلسطين والعراق، وقد وجد فيها الأرسوزي ما يشدّه إليها، فرحّب بها، وعمل في صفوفها، يؤازره أنصارُها داخل اللواء وخارجه، وأصبح مع مناصريه أعضاء في العصبة، يسرّه أن تنتشرَ العصبة في اللواء كما تنتشر أفكاره فلا خلاف بينهما، لا يأبه للألقاب يهمّه الالتقاء هو ومن معه بالذين يؤمنون بالعروبة، فالغالي والرخيص يجب أن يبذل في سبيل العروبة.[٢]

كانت الفترة من (١٩٣٤-١٩٣٨م) فترة حاسمة في حياة الأستاذ، وجّهت نشاطَهُ وبلورت أفكاره، وكانت في نظره الفترةَ الأهمَّ في تاريخ العرب الحديث؛ لأنّها جمعت جهود الشَّباب المبعثر، فبعد أن كانوا طوائف وشيعاً وأسراً وطبقات، انصهروا ضمن اللواء في

٢- من مقدمة المجلد الأول من الأعمال الكاملة، ص١٢.

بوتقة العروبة، يناضلون لاستئناف تاريخ جديد يكون استمراراً لتاريخ الفتوحات. إلى جانب ما سبق كان يتابع الأحداث العالميَّة والعربيَّة والمحليَّة، ويكشفُ دلالاتِ ما يحدث، ويرسل أنصاره إلى أرجاء اللواء يبثّون أفكاره، وما أكثر ما اجتمع النّاس حولَه يستمعون وينصتون إلى شروحاته يأسرهم بأحاديثه وأسلوبه!

أسّس في أنطاكيَّة جريدته العروبة، وكانت مقالاته فيها تنتشر انتشاراً واسعاً، يتداولها اللوائيّون وغيرهم في أنحاء سورية، فأخذت أفكاره القوميَّة طريقها إلى النّاس، كما مقالاته الَّتي كان يفنّد فيها أغراض فرنسا وتركيا وتآمرهما على اللواء، ولم ينفكّ يبثُّ روح المقاومة بين السكّان، لا يردعه إغلاق جريدته المتكرّر، بل زاد ذلك من إصراره على التَّنديد بالمؤامرة، وإعلاء صوته منادياً بالعروبة، مدافعاً عنها وعن حقّ

العرب في الحريَّة والعدالة والمساواة، وإلغاء التَّمييز بين البشر بسبب الجنس واللون...

ظلَّ اللوائيون داخل اللواء وخارجه عندما يريدون التَّحدُّث عن الأرسوزي يقتصرون في الإشارة إليه بلقب الأستاذ؛ ذلك اللقب الذي رافقه طيلة حياته (قال الأستاذ، ذهب الأستاذ، نقل الأستاذ، اعتُقل الأستاذ...)، وأُطلقت عليه ألقاب وتسميات أخرى إضافة إلى هذا اللقب، مثل راهب القوميَّة العربيّة وقديسها.

اعتُقل الرجل وهو يدعو العرب إلى حشد قواهم للإدلاء بأصواتهم لصالح عروبة اللواء، تقمَّص كلُّ لوائيّ شخصيَّةَ الأستاذ النّساء قبلَ الرجال، والفتى قبل الراشد، فكلُّ لوائيٍّ أصبح ضمن حدوده زكي

الأرسوزي. هاجم سكّانُ اللواء السجنَ الذي وُضعَ فيه الأستاذ تحتَ وابل الرصاص، فما هانوا يلفظ القتيل أنفاسَهُ، وهو يلهج باسم الأستاذ.

وما إن أُطلق سراحُ الأرسوزي حتّى خرجَ النّاس جماعاتٍ لرؤيته حيّاً، فصرخَ رئيسُ اللجنة الدّوليَّة للاستفتاء أمام الملأ مخاطباً أهلَ اللواء:

ننحني لبطولاتكم، فما من عاصمة أوربيَّة تستطيعُ أن تصمدَ أمامَ القوّة الَّتي صمدتم أمامها، وتبذل من التَّضحياتِ بمثل ما بذلتم في سبيل قضيّتكم.

خرجَ الأستاذ من اللواء قسراً بعد الاستفتاء المريب الذي أتت نتائجُهُ معَ كلِّ التَّزوير، وصدِّ المستفتين لصالح عروبة اللواء، ومعَ ذلك دخلت الجيوشُ التَّركيَّة اللواءَ، واحتلَّته تحميها قواتُ الانتداب.

خُيّر الأستاذ، كما خُيِّرَ غيرُهُ من عرب اللواء بينَ الهجرة إلى أحد الأقطار العربيّة، والبقاء في اللواء الذي أصبح غدراً قطعة من تركيا، فاختار هو وأهلُهُ وخيرةُ رفاقه الهجرة إلى سورية عام ١٩٣٨م تاركين بيوتَهم وكلَّ ما يملكون عام ١٩٣٨م.

وفي عام ١٩٤٠م قصد العراق ليعملَ في التَّدريس في إحدى مدارس العاصمة بغداد، فلم تَطُلْ إقامته فيها، وهناك فوجئَ بتسريحه من عمله لأسباب تتعلّقُ بانتقاده للحكم القائم في ذلك القطر العربيّ الذي تتحكّمُ به سلطاتُ الاستعمار البريطاني، بحجّة أنّه كان دائم الحديث في شؤون الأمَّة العربيّة، ويبثُّ أفكاره القوميَّة بين الطلاب وزملائه من المدرسين.

عاد إلى دمشقَ ليعيشَ سنواتٍ صعبةً امتدّت بين عامي (١٩٤١و ١٩٤٥م) فتفرَّغ حينها لدراسة اللغة

العربيّة؛ ليكونَ ذلك منطلقَ تفكيره الفلسفيّ والقوميّ واهتمامه بما سمّاه عبقريّة الأمَّة العربيّة بلسانها؛ لكنّها سنوات عجاف عاشها مع عدد من تلاميذه بعوز شديد. وفي عام ١٩٤٥م كان الانتدابُ الفرنسيّ قد وقع تحتَ ضغوط شعبيَّةٍ وحركات منظّمة تطالبُهُ بالرحيل، فعاد الأستاذ إلى التدريس، وعُيّن مدرّساً للفلسفة والتَّاريخ، لكنَّ السلطةَ وبعضَ أعضاء الحكومة الوطنيَّة اشترطوا ألا يكون تعيينُهُ في دمشق.

أمضى الفترةَ بينَ عامي (١٩٤٥و ١٩٤٨م) يدرّس الفلسفة والتَّاريخ في ثانويَّة حماة، ونُقل بعدها إلى حلب، وأمضى فيها أربع سنوات من (١٩٤٨-١٩٥٢م).

ضُنّ عليه في العام الدّراسي (١٩٥٠-١٩٥١م) بوظيفة مدرّس للفلسفة في المرحلة الثانويَّة في حلب، واقتُرح نقلُهُ إلى متوسّطة إدلب، لكنَّ زملاءه من

مدرّسي الفلسفة في وزارة المعارف من كلّ المحافظات انبروا لتذكير الوزارة بوزن هذا المدرّس وأهليّته قائلين في عريضة وجّهوها إليها :

«الأستاذ الأرسوزي صاحبُ رسالة هي رسالة الأمَّة العربيّة بالذات، ولا يخفى على أحد بأنَّ هذا السببَ حدا بالاستعمار إلى اضطهاده طوال سنوات سلطانه، وعمل على وضع سدّ كثيف بينه وبين الجمهور حتّى لا تتعرّفَ هذهِ الأمَّةُ على ذاتها في ممثّلها المفكّر.

ولكنّنا نستغرب ونعجب - ونحن في زمن الاستقلال والحريَّة - أن نرى الأستاذ يُعامل كما كان الاستعمار يُعامله، وعلى الطريقة عينها ....»

إلى آخر العريضة الَّتي وقّع عليها مدرسو الفلسفة في ثانويات الجمهوريَّة السوريَّة في ذلك العام، وهم: «أنطون المقدسي، عدنان السبيعي، جابر علي، وفيق

العظمة، أحمد القادري، جميل محفوظ، عارفة سلوم، مارسيل عبسي، رشيقة العمري، عبد الكريم خليفة، عبد الكريم زهور، جولييت عويشق، رستم الماضي، حميد الأنطاكي، خلوق الشَّهبندر، ملك أبيض عيسى، علي جبر».

أخيراً في عام ١٩٥٢م، نُقل الأرسوزي إلى دمشق مدرّساً في دار المعلّمين الابتدائيَّة حتّى إحالته على التَّقاعد عام ١٩٥٩م.

كرّمته الحكومة السوريَّة عام ١٩٦٧م بمنحه الجائزة التَّقديريَّة من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعيَّة، بعد أن قدّمت لجنة الفلسفة في المجلس مذكّرةً ترشّحُهُ فيها لنيل هذه الجائزة مؤرّخة في ١٩٦٧/١/٢١م، وكانت هذه اللجنة برئاسة مقرّر لجنة الفلسفة وعلم الاجتماع عبد الكريم اليافي،

وعضويَّة كلّ من أنطون مقدسي، وصدقي إسماعيل، وأسعد درقاوي وبديع الكسم.[٣].

أتاحت له إقامتُهُ في دمشقَ الفرصَ للاتصال بالطلاب والمدرّسين وبعض السياسيّين، ونشر أفكاره بينهم لتأخذَ طريقها إلى الانتشار، مدافعاً عن حقوق العرب في الحريَّة والاستقلال والوحدة القوميَّة. بالإضافة إلى دروسه وفق المنهاج المدرسي، كان يُمتع طلابَهُ بأمثلة من الحياة، وأخرى من تجاربه النّضاليَّة في أنطاكيَّة وسائر جهات اللواء الأخرى. كان منهجه الفلسفيّ المتوازن يساعده على توضيح الفكر القومي، وبثّ العاطفة القوميَّة بنبرات هادئة وبأسلوب ماتع، لا تهويش ولا انسياق وراء الشّعارات، ويُشعر من يحادثهم أنّهم أمام شخص تخرج كلماتُهُ من القلب لتدخلَ قلوبهم، وثمّة ابتسامةٌ ناعمة لا تخطئها عينٌ من يقابلونه، تظلّ مرسومة على ثغره.

٣- السابق ص ٢٠.

لم تنحصر نشاطاتُه وأحاديثه فيما هو دائم الانشغال به في قاعات الدّرس، إنّما كانت تأخذه إليها في باحة المدرسة، يجتمع حوله طلابه، يسألونه ويحاورونه فلا يعرفُ الملل، يفيض الكلام من فمه كأنّه يخرجُ من نبع. يمشي في الباحة في أثناء الفرص أو يجلس في قاعة المدرّسين، يتسابق زملاؤه للاقتراب منه، يستمعون إليه بشغف زائد، ولا سيّما أولئك المدرّسين الشَّغوفين بالحكمة وبفلسفة العروبة. وخارج الدّوام المدرسي كنّا –تلامذته– نراه مراراً يمشي ويتحدّثُ مرّة، بل مرّات مع كلّ من المدرّسَين الشّابين وقتذاك (تيسير شيخ الأرض ومطاع صفدي)، يستغلّون الفرصة بين الدّروس ليحدّثهما معاً أو فرادى ويبسط لهما أفكاره.

ظلَّ يتّخذُ له مقعداً في مقهى الهافانا الدّمشقي المشهور لساعات طويلة، يقصدُهُ طلابٌ ومدرّسون

ومحامون وبعضٌ من رجال السياسة وغيرهم، يستمتعون بحديثه، ويطلبون الاستفادة من أفكاره وفلسفته، فيشبع رغباتِهم في حديثه عن ظاهرة أو حدث ما وكثيراً ما كان يربطُ أحاديثَهُ بتجاربه في اللواء الذي ظلَّ حاضراً في ذهنه لا يبرحه.

في مرحلة الخمسينيّات من القرن الماضي، كانت الحياة السياسيَّة في سورية ناشطة، والحراك الشَّعبي لا يتوقّف، والتَّفاؤل يعمر القلوب، كثرت التَّظاهراتُ الطلابيَّةُ والعماليَّة، تعزف على آمالٍ وأهدافٍ وطنيَّة وقوميَّة، من تظاهرة مؤيّدة لثورة الجزائر، إلى أخرى مستنكرة العدوانَ الثلاثيَّ على مصر، إلى تظاهرات سنويَّة مستنكرة وعدَ بلفور، وسلخ اللواء، وتقسيم فلسطين وغيرها؛ ما من حدث عربيّ أو أمميّ إلا وتكون الساحةُ السوريَّة سبّاقةً للتفاعل معه. يعود بعض من الطلاب من التَّظاهرة يقصدون الأستاذ في الركن المعتاد

له في المقهى يسألونه عن رأيه في التَّظاهرة الحاشدة، لا يتكدّر خاطره ولا يضجر، ذاتَ مرّة قال لا شيءَ أجملُ من هذا الحشد الجميل، لكن للمرء أن يتساءلَ لماذا لا يستثمر الحكّام هذه الحماسة؟ يتابع قائلاً: عندما يهيجُ البحر، وتعلو أمواجه، يظنُّ النّاظرون إليه أنّه يكاد يغمر قراهم، لكنّهم يقولون لن يفيضَ ماءُ البحر ويغمرهم، لأنَّ مقامَ الخضر يحميهم ويصدُّ الموجَ العاتي فيتراجع، وهذا الموجُ البشريّ الذي رأيت، كيف لا يأخذُه الحكَّامُ العرب على محمل الجدّ؛ فيُعدّه لكنس الاستعمار من الأرض العربيّة؟! ما الذي يمنع الحاكم من أخذه إلى حيثُ يكنسُ كلَّ أثر للاستعمار؟ ننتظر جوابه عن سؤاله ذاك. ينصت قليلاً ثم يجيب: إنّها الليرة أمّ حصان. (يقصد المال الذي يُرشى به الحاكم)، هي ما يلجمهم فيتخاذلون..

وثمَّةَ مسائلُ وأحداثٌ أخرى بعيدة عن السياسة، كان يجيب عنها بدماثته وحبّه للحقيقة والعلم، نسأله

عن «فيلم» سينمائي يُعرض على إحدى شاشات دور السينما في دمشق، وما كان أكثرها في تلك المرحلة! وكان محبّاً للسينما يشجّعنا على حضور بعض «أفلامها»، يحلّل «الفيلم»، ويبرز المعنى الذي ينطوي عليه، وقد كان مولعاً بـ «أفلام» الممثّلة المصريَّة مديحة يسري.

كان الأرسوزي بالنّسبة إلى الشباب الذين تعرّفوا به، واستمعوا إلى عذب كلامه مدرسةً متكاملة؛ تتفاعل في أحاديثه الأفكارُ القوميَّةُ معَ جوانبَ عديدةٍ من جوانب الحياة المختلفة، تكثر في أحاديثه الصورُ الَّتي يصطادها ممّا يجري حولَهُ وما تنظر إليه أفكاره. في الاستماع إلى حديث دار معه حول «فيلم» أجنبي، سُئل: لماذا لا نرى في الأفلام الَّتي تتناولُ أمراً من أمور الحاضر الفتياتِ بالملابس الفضفاضة، فيلبسَن الملابس الضيّقة؟ يقول:

خرجت المرأةُ في الغرب عن عاداتها القديمة، وصارتْ تشاركُ الرجلَ في العمل وغيره من أنواع النّشاط، فكيفَ لامرأة تعملُ أمامَ الآلة أن تلبسَ لباساً فضفاضاً تلفُّهُ الآلةُ وترميها ميتة؟ كتب:

الإنسانُ وحدَهُ من بين الأحياء يبني عالمه، وينشئ شخصيَّته وفق وجهة نظره في الحياة، والقدرة على هذا البناء والإنشاء هي الحريَّة. يصنع الإنسان لباسه، وإذا اختارَ العربيُّ اللباسَ الفضفاض فإنّهُ قد آثرَ الظهورَ بمظهر الأمارة والحشمة، وإذا اختارَ الفرنجيُّ اللباسَ الأكثر التصاقاً (البنطلون) فإنّه يؤثر الخفَّةَ والسهولةَ في العمل. ولما طَبعت الحضارةُ الحديثةُ العالمَ بطابعها الصناعيّ، أقبلتِ الأقوامُ على اللباس الأنسب للعمل حتّى أنّ النّساء أخذن يراعين مقتضيات طابع العصر.[٤]

٤ – زكي الأرسوزي: الحريَّة غاية مرتقى الحياة، المعلّم العربيّ، ع (٣ –٤)، ١٩٦٤م.

كان في حياته الشَّخصيَّة مثالَ الزاهد، لا يغريه مال أو منصب؛ اكتفى في سكناه بغرفة مفروشة في حيّ السبكة يأوي إليها بعد يوم من العمل الذهنيّ المتواصل في المدرسة وفي المقهى، لم يمتلك بناية ولا بيتاً في بناية، كما لم يمتلك أثاثاً، ولم يملك جهاز تلفاز حتّى عام ١٩٦٦م قبل وفاته بأقلّ من سنتين؛ وكان أهداه إياه وزيرُ الإعلام في حينه، وقد تفاجأ بأنَّ مفكّراً بوزن الأرسوزي لا يمتلكُ مثل هذا الجهاز. خرج من الدّنيا من غير أن يترك خلفه إرثاً مالياً أو عقاراً، ولم يبنِ أسرة. كانت أفكاره زاداً ينثره بين النّاس، وظلّت كتبه تنتظر مؤرّخاً أو باحثاً يكشف عن غناها في المعاني والمعارف. كانت كتبه ومقالاته وما زالت أجمل وأثمن إرث يمكن أن يتركه إنسان خلفه للمكتبة العربيّة وللأجيال من بعده؛ إنّها فلسفة الأرسوزي.

لا تناقض بين أفكاره وسلوكاته، واسع الثقافة بلا تبجّح، له خصوصيّته من حيث شخصيّته، وأحاديثه،

وأسلوبه في الحياة، وعلاقته بتلاميذه، فقد كان متفرّداً بشخصيَّة لا يخالج المرء شعوراً بكرهه، بل كان قريباً إلى كلّ من يعرفه أو يتعرّف به؛ إنّه شخصيَّة محبّبة بالإجمال مع أنّ له مزاجه المتفرّد في النّقد:

«نقد الحكّام، نقد الممارسات، نقد الأحزاب والأشخاص»؛ معياره في الحكم على سلوك أيّ عربيّ درجة إيمانه بالعروبة.

مؤلفاته:

ترك الأرسوزي وراءه كنزاً معرفيّاً وسجلاً نضاليّاً ندر اجتماعهما عند واحد من النّاس. كتب أنطون مقدسي في مشاركته في الموسوعة العربيّة مادة عن الأرسوزي، جاء فيها :

الأرسوزي هو أوّل من جعلَ العربيّةَ في العصور الحديثة تنطقُ فلسفة؛ إنّي إذ أكتشفُ مصادرَ الأرسوزي عند أفلوطين والرومانسيّين الألمان وفيختته وفندريس وغير هؤلاء، لا أُفقده الأصالة؛ فالرجل كان يصهرُ كلَّ ما يقرأ على الضبط، كما يصهر الجسمُ الحيُّ الغذاء، يتمثّلهُ ويذيبه في كيانه.

أهمّ كتب الأرسوزي وأكثرها ذيوعاً عند تلامذته والمهتمين من القرّاء والباحثين في أعماله وسيرته، كتابه الأثيرُ على نفسه الذي صبَّ فيه أهمَّ أفكاره،

وأبرزَ من خلاله تجربتَهُ الفلسفيَّة، هو كتابه الأول في قائمة كتبه الآتية:

- العبقريَّة العربيّة في لسانها، الذي صدر عن دار اليقظة العربيّة، وأتبعه بسلسلة من الكتب الَّتي لا تقلّ أهميَّة، وهو يتابعُ فيها مسيرةَ الكتابة الَّتي بدأ بها مُؤلَّفه هذا، منها:

- رسالتنا الفلسفة والأخلاق.
- رسالة الفنّ.
- رسالة المدينة والثقافة.
- الأمَّة العربيّة.
- صوت العروبة في لواء إسكندرون.
- متى يكون الحكم ديمقراطيّاً.
- الجمهوريَّة المثلى.
- التَّربية السياسيَّة المثلى.
- مشاكلنا القوميَّة.

- التَّربية المثلى.
- جمهوريَّة القوميَّة.
- كيف يرتقي الإنسان العربيّ بأصالة إلى القرن؟
- البعث القومي.

إضافة إلى العديد من المقالات الَّتي كان ينشرها في بعض المجلات السوريَّة ولا سيّما مجلة الجندي.

هذا التَّراث الغني أُتيحَ له أن يُجمع في ستّة مجلّدات صدرت عن الإدارة السياسيَّة التَّابعة للجيش ووزارة الثقافة تباعاً بين عامي (١٩٧٢ و١٩٧٦م) بإشراف لجنة شُكّلت لتخليد ذكراه، تألّفت بعد وفاته عام ١٩٦٨م، وكانت قد أقامت له هذه اللجنةُ حفلَ تأبين يليقُ به، وعملت مع الجهات الرسميَّة على إقامة تمثال له يوضع في ساحة عامّة أو حديقة من حدائق دمشق العاصمة، فكان ذلك التَّمثالَ المنتصبَ حتّى الآن وسط الحديقة المسمّاة باسمه في حيّ المزرعة القريب من

المصرف المركزيّ إلى الشَّمال الشَّرقيّ من ساحة «السبع بحرات» في دمشق.

- شغلَتْ فِكَرُ الأرسوزي معاني الأمَّة العربيّة؛ فكانت هذه المؤلّفات وغيرها ممّا جادت به قريحتُهُ وسيلتَهُ إلى نشر آرائه وتعميق أفكاره، فهي بصورة واضحة قد شكّلت مجموع أفكاره وفلسفته في الوجود، وتطلّعاته إلى وحدة العرب وبعث قوميّتهم، وشكّلت عمقَ نظرته إلى حال الأمَّة العربيّة ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. عرض واقعاً وتاريخاً، واقترح حلولاً لمشكلات استقرأها، ووضع تصوّرات للدولة القوميَّة الَّتي لا بدَّ من بعثها لترتقي إلى المستوى الذي بلغته الحضارة المعاصرة.

- نهلَ الأرسوزي من ثقافات متعدّدة، وفي القلب منها الثقافة العربيّة مستخدماً التَّحليل التَّاريخيَّ لتاريخ العرب في العصر الجاهليّ وصدر الإسلام، ومنه إلى

مراحل الانحطاط والتَّغييب والشَّلل الذي أصاب الأمَّة في الصميم، لكنّه ظلَّ متفائلاً أنّ العرب لابدّ أن ينهضوا من كبواتهم، وكانت رؤاه وتحليلاتُهُ يسندها إلى تجربته النّضاليَّة في لواء إسكندرون، فقد شكّلت مأساةُ اللواء واقتطاعُهُ من سورية بمؤامرة خسيسة علامةً بارزة في سيرته وتاريخه النّضالي حينَ اكتشفَ المؤامرةَ ونبّه لها، ثمّ أعلنها ثورةً على سلطات الانتداب وحملات التَّتريك المناوئة لعروبة اللواء الَّتي استهدفت تغييرَ اللواء.

كان للأرسوزي تلامذته الذين اجتمعوا حوله وتأثّروا بأفكاره، كان منهم السياسيُّ والأديبُ ورجلُ القانون والنّقابيّ، وجمهورٌ واسع من الطلاب والمثقّفين؛ كوهيب الغانم الإنسان الذي رهن نفسه في حقل الطبّ لمداواة الفلاحين في قراهم النّائية وصعبة المسالك، ومنهم المفكّر والأديب صدقي إسماعيل وغيرهما الكثير.

اللسان العربيّ (اللغة العربيّة):

شكّل ما كتبه الأرسوزيّ حولَ اللسان العربيّ فكرة محوريَّة في كلّ ما كتب، كان قد أبى أن يسمّيه اللغة العربيّة، لأنّه كان يعيد كلمة (لغة) إلى اللغو، واتخذ من ذلك مدخلاً إلى فلسته بعامة، إذ إنّ نظريّته في هذا المجال تقوم على جدلين:

- الجدل الأوّل: يتجلّى في الحياة، وتتجلّى الحياةُ في الأمَّة، وتتجلّى الأمَّةُ العربيّة في عبقريّتها، وتتجلّى عبقريّتُها في لسانها.

- الجدل الثاني: يتعلّق ببعث الأمَّة؛ فدراسة اللسان تبعث عبقريَّة الأمَّة، وبعثُ الأمَّة يبعثُ الحياةَ، وفي بعثِ الحياة ارتقاءٌ إلى المعنى، والمعنى قادرٌ على كلّ شيء.

كانَ اللسانُ العربيّ بحثَهُ الأوّلَ ومحورَ فلسفته، يعود إليه فلا يخلو بحثٌ من أبحاثه من فقرات تقلُّ أو

تكثر عنه؛ فحدسُهُ المحوريُّ ليسَ حدسَ الجوهر، إنّما حدسُ الحياة؛ واللسان العربيّ بيانٌ حيويّ ...

للأمّة العربيّة وجهةُ نظر في الحياة والوجود، الحياةُ والوجودُ تتضمّنهما أصولُهما في كلمات اللسان العربيّ...، كلُّ محسوس يرتدُّ إلى المعنى يكون معنويّاً. يقول الفيلسوف: المرحلة التَّاريخيَّةُ من الأمَّة كالموسم من البذرة، والتَّراثُ القوميُّ هو المظهر الذي تتجلّى فيه عبقريَّةُ الأمَّة.

يتلخّصُ تراثنا في لساننا، وكانتْ حياتنا الاجتماعيَّةُ الأدبيَّةُ استجلاءً للمعاني المتضمّنة في كلماتنا، وآثرنا العملَ بأن نبدأَ بالتَّنبيه إلى طابع هذا اللسان الخاصّ ومزاياه.

ميّز الأرسوزي بين اللسان العربيّ واللغات الأخرى، واستهواه هذا البحث، كما كتب أنطون مقدسي في

الموسوعة العربيّة مشيراً إلى أنّ اللسان العربيّ صاغه المعنى على أحسن تقويم، فكان بحثُهُ في اللسان مدخلاً إلى البعث.

كانَ دائمَ الحديث في جلساته فيما يكتبُ عن اللسان العربيّ، وكان يلحُّ دائماً على فرادته من حيثُ طبيعتهُ وما يعبّرُ عنه. لخّصَ مزايا هذا اللسان في كتابه (الجمهوريَّة المثلى - التَّربية السياسيَّة المثلى) الذي صدرَ عن دار اليقظة العربيّة في دمشق، قال:

١- أوّل مزايا هذا اللسان أنّه بدائيّ؛ أي أنّ الكلمات العربيّة ترجعُ في نشأتها إلى أصوات طبيعيَّة؛ فإلى صوت (آخ) ترجع كلمات أخ وأخوة وإخاء... وغيرها، لا يستثنى من هذه القاعدة كلمة واحدة في لساننا.

بالمقارنة بين هذا وما هو في لغات أخرى، يتبيّن الاختلاف؛ ففي اللغات الأوربيَّة كالفرنسيَّة مثلاً نرى

الكلماتِ عندَهم حصلَتْ بتحويرٍ عن كلماتٍ موجودةٍ في الكلماتِ اللاتينيَّة، وهذه الأخيرة حصلَتْ – كما يقول – بتحويرها عن لغة أقدم كاللغة الهنديَّة الأوربيَّة؛ أي أنَّ الفرنسيَّةَ وغيرها من اللغات السائدة اليوم عندَ الشّعوب الأوربيَّة ومن في حكمها تبقى لغاتٍ طافيةً في التَّاريخ لا جذورَ طبيعيَّةً لها.

ليسَ اللسانُ العربيّ مشتقّاً من شيء آخرَ سوى الطبيعة (أي الأصوات الَّتي تصدر عن الطبيعة)، أي أنَّ للأمَّة العربيّة تكويناً خاصاً بها هو الأصالة، كما يضيف، ويصل في شرحه هذا إلى القول:

بدأَ ظهورُ الأمَّة العربيّة على مسرح التَّاريخ مع ظهور الإنسانيَّة؛ إذ تدلُّ الأمَّة العربيّة بظهورها على نقطة التَّحوُّل عن الحيوانيَّة، عن عهد كانت الألفاظُ فيه تعبّرُ عن الهيجان إلى عهدٍ أصبحَتْ هذه الألفاظُ فيه كلماتٍ تفصحُ عمّا يجيشُ في النّفس.

٢- اللسان العربيّ نسيج وحده بين اللغات، أي أنّه بدئيٌّ؛ طابعه هذا يقومُ على خصائص يحدّدها كالآتي:

- الصلةُ الاشتقاقيَّةُ بين الكلمات، ورجوعُ الأخيرة إلى مصدر مشترك بينها يجعلانِ الكلمات المعبّرةَ عن المحسوس منها تعريفاً بالإشارة إلى ما يعبّر عن المجرّد المعقول منها. يضرب مثالاً على هذا: إنّ كلمة «ذُكاء» (الشَّمس) مثلاً تعريفٌ بالمجاز لمفهوم الذكاء في علم النّفس. لم تكن اللغة العربيّة وضعيَّة، لكنَّها حدسٌ، أجابت به الحياةُ عن قطبي انكشافه (المعنى والصورة) إجابةً عضويَّة مباشرة.

- ظلَّ اللسانُ العربيُّ محتفظاً بنموّه نحو أداة بيانيَّة متكاملة، فضلاً عن احتفاظ كلماته بجذورها الطبيعيَّة، أي أنّ اللسان العربيّ ظلَّ محتفظاً بوجهة الحياة الأصيلة وبنهج تكوين الإنسانيَّة.[٥]

٥ - زكي الأرسوزي: الجمهوريّة المثلى، المجلد الرابع، ص ١٢٠ – ١٢١.

٣- تتألّف كلمات اللسان العربيّ كلُّها من صوت وخيال مرئي، ومعنى هو قوام تآلفهما؛ الصوت هنا؛ هو من المعنى كالجسد من الروح، وتظهر العلاقةُ بين الصوت والمعنى في الحركات وفي الحروف وفي نظام الحروف وفي القواعد العامة للغة. ويضرب لتوضيح هذه الخاصيَّة للسان العربيّ أمثلة، منها:

- في الحروف، يعبّرُ حرف (غ) عن معنى حدوثه في الفم، وهو معنى الغيبوبة (غاب، غاص، غار، غرب).

- نظام الحروف في الكلمة يوحي بالمعنى، كلمة (نبَّ) توحي بمعنى الظهور، بمعنى الانتقال من الدّاخل إلى الخارج تبعاً لحدوث كلّ من حرفيها (ن) و(ب)؛ الأول يعبّرُ عن الصميم، والآخر يعبّرُ عن الخارج، ومثل ذلك: (نبق، نبع، نبغ ...).

- وللسان العربيّ مزايا ومزايا، (العلاقة الاشتقاقيَّة بين الكلمات العربيّة على مثال العلاقة بين الأنغام في الأنشودة).

- يبلغ الأرسوزي في بيانه حدّاً أعلى، وهو يضرب الأمثلة، ويكشف عن العلاقات الاشتقاقيَّة، مبيّناً النّزعةَ المثاليَّةَ الَّتي تُظهِرُ العلاقة مثلاً بن كلمتي (حَق) و(حُق) الَّتي هي الصورة الحسيَّة للأولى، أي كأنَّ الذهنَ العربيّ يدركُ واقعَ الأمر في علاقته من المثل الأعلى، الذي هو كماله (الحَق) على مثال علاقة العظم بحُقّه (بجرنه).

- لا يتركُ الأرسوزي الكلام عن المتضادّات، فيعيدُ معناها من خلال العلاقة بين الحقيقة وتجلياتها: (يبعث المجتمع على القلق في نفوس أعضائه، إذا زاغ الواقع فيه عن حقيقته):

- إذا كانت كلمة (رحمان) تدلّ بصورتها الحسيَّة (الرحم) على العلاقة بين الحقيقة وتجلياتها، فكلمة (شيطان) تدلّ باشتقاقها من (شطّ) على بلوغ التَّضاد

أشدَّهُ في نفس العربيّ، بين الواقع المزوّر وكماله، المثل الأعلى.

- ظلَّ اللسانُ العربيّ بفضل بنيانه الاشتقاقيّ محتفظاً بأصوله في الطبيعة، وبمسالك نموّه نحو أداة بيانيَّة متكاملة. لم تزل الكلمة فيه على نشأتها الأولى، صورة صوتيَّة، تحمل طابع المعنى الذي أنشأها، وتدلُّ عليه دلالة المبنى على المصمّم، وبنيان هذا اللسان لم يزل يؤلّف كلاً حيّاً تتّسق فيه المقوّمات كالنّحو والكلام والنّغم اتّساق الأنسجة في البدن.

القوميَّة العربيّة:

- ظهرت فكرةُ القوميَّة العربيّة في كتاباتٍ كثيرة، بدءاً من نهايات القرن التَّاسعَ عشرَ وبداياتِ القرن العشرين، إذ بدأتْ بوادرُ يقظةٍ فكريَّة؛ منها ما ظهرَ في بلاد الشَّام في لبنان وسورية وفلسطين. كما كانت تتردّدُ عبارةُ القوميَّة العربيّة والأمَّة العربيّة في شمالي إفريقيا في كلّ من تونس والجزائر. لكنَّ صعوباتِ الاتصال، وانتشار الأميّة، حالَ دونَ انتشار تلك الكتاباَت انتشاراً يؤدّي الغرضَ منها.

أيقظت سياساتُ التَّتريك والنّزعةُ الطورانيَّة مشاعرَ كانت غائبةً عن الذهن العربيّ، وأخذتْ هذه المشاعرُ بالنموّ باتّجاه التَّميّز العربيّ من غيره في أنحاء سلطنة آل عثمان.

- نشطَ المفكّرون العربُ في الحديث عن القوميَّة والعروبة، وبرزت مؤلّفاتٌ هامّةٌ وحركاتٌ تنادي بالوحدة

وحقّ الأمَّة العربيّة في الحريَّة، من مثل مؤلّفات ساطع الحصري وقسطنطين زريق ونبيه سلامة وعلي ناصر الدّين وغيرهم.

- كان الأرسوزي مؤمناً بعراقة القوميَّة العربيّة وقِدَمها. والقوميَّة، بحسب ما كتب، هي مجموعة من البشر متميّزةٌ من غيرها بلسانها، وبما يقوم على اللسان في المؤسّسات العامة والخاصة. والمؤسّسات العامة في الأمَّة هي: اللسان والأخلاق والدّيانة والفنون والعرف والفقه والعادات والتَّشريع والفلسفة؛ والمؤسّسات هي ما تنشئه الأمَّة من نظم وبنى لتعبّر عن وجودها.

- ما هي الأمَّة؟ يسأل الفيلسوف ويجيب بأسئلة أخرى، يقول:

- أهي مفهوم يبنيه الذهنُ تعبيراً عن وضع مشترك وعام، أنشأه الأجدادُ فأورثوه الأحفاد أم هي آيةٌ أصولها

في الملأ الأعلى؟ أهي عبقريَّة مبدعة أم بنيان متلازم المظاهر بالتَّداعي؟

- الأمَّـةُ العربيّةُ ليست كسواها شركةً مساهمة، وليست جملة ذكريات، كما يقول بعض الأوربيين.

- الأمَّةُ بنيانٌ قد اشتركَتْ في تشييده السماءُ معَ الإرادة الإنسانيَّة منسجمتين. بنيان يتمتّع بنشأته هذه بهالة قدسيَّة.[6]

- لم تختلف الأمَّـةُ العربيّةُ عن سواها بنشأتها السماويَّة وبنيانها الخالد فحسب، إنّما امتازت على الخصوص بذهنيّتها المنبعثة عن تلك النّشأة، وبمفاهيمها الإنسانيَّة ذات الصلة بهذه الذهنيَّة.

- العربُ هم أصحابُ أسطورة الأسرة الإنسانيَّة الَّتي انحدرت من آدم وحواء. ومصطلحا أمَّة وقوميَّة

---

٦ - المجلد الأول ص ٢٢٢.

- بحسب الأرسوزي - ليسا مترادفين؛ فكلمة أمَّة هي والأم مشتقّتان من المصدر نفسه؛ الأم هي الصورة الحيَّة للأمَّة؛ مَثَلُ هذه من أعضاء المجتمع كمثل الأم من أبنائها. وتعني الأمَّة، فضلاً عن ذلك، مصدرَ الأعراف والمؤسّسات العامة.

- أمّا القوميَّة فهي رابطةٌ بين ذوي القربى تظهرُ في مؤازرتهم بعضهم بعضاً. يقول: بنو قوم الإنسان هم من ينجدونه ويهبّون للذود عنه.

- مفهوم القوميَّة، ليس كما درج عليه الغربُ ومن ساروا على منواله أنّه أحدثته الثورة الصناعيَّة، بل هو مفهوم قديم أصيل في الطبع البشريّ وملازم لوجود الإنسان، تمتدُّ جذوره إلى ما وراء الفعل في الحياة، وهو مظهرٌ لغريزة النّوع عند الأحياء يقوم على مبدأ الأخوّة القوميَّة والقوم. (القوميَّة مشتقَّة من كلمة قوم)، والقومُ هم الأقاربُ الذين يهبّون لمؤازرة بعضهم بعضاً.

- يلتقي مفهوما الأمَّـة والقوميَّة، في أنّهما معاً، وفيهما يكمنُ مبدأ التَّأهّب للذود عن حدود الوطن، ويجتمعان لتحقيق هدف مشترك.

- يذكر الأرسوزي دائماً وبتفاؤل لا ينقطع، فيقول:

- فإن خبا وهـجُ الشَّعور القومي بسبب ضعف الدّولة العربيّة منذ عهد المتوكّل ومن تبعه، فإنّه عند بعض المحن، يصبحُ قويّاً ولا سيّما في أثناء الأحداث المصيريَّة الَّتي خاضَها العرب، فوقفت الأمَّـة العربيّة في وجه الأحداث الكبرى، وحقَّقت النّصرَ للعرب، كما حدث في مواجهة الغزو الصليبي، وبعده الغزو التَّتري في العصور الوسطى.

- ليسَ مفهوما الأمَّة والقوميَّة غريبين في التَّاريخ العربيّ، بل هما موجودان تؤكّد ذلك حوادث كبرى؛ كانا موجودين قبلَ الإسلام وبعدَ ظهوره؛ فالعربُ قومٌ وشعب موجودان قبل التَّاريخ وما زالا إلى يومنا هذا.

يضرب الأرسوزي أمثلة على قدم مفهوم القوميَّة في عدد من الوقائع التَّاريخيَّة:

- اعتقاد العرب بوحدة النّسب بعثَ فيهم منذ القِدمِ الشّعورَ بوحدة المصير.

- مثال (١): غزا الأحباشُ جزيرةَ العرب قبلَ الإسلام، عندما قصدَ أبرهةُ الحبشيّ الحجازَ ليهدمَ الكعبة (البيت العتيق)، وكان بداية عصر حضاريٍّ جديد في حينه، وجد أبرهة واحداً من العرب دلَّ جيشَهُ على الطريق إلى الكعبة، إنه (أبو رغال) الذي أصبحَ اسمهُ مسبّةَ الأجيال...، وكلّ عابر سبيل يمرُّ قربه يلقي بحجر عليه.

- مثال (٢): عندما قام سيف بن ذي يزن بإخراج الأحباش من الجزيرة العربيّة، ذهبَ وفدٌ من عرب الحجاز، ومن مكّة تحديداً، على رأسهم عبد المطلب

جدُّ الرسول إلى اليمن يهنئّون سيفاً، ويشكرونه على تطهير ديار العرب من الغزاة.

- أكثرَ الأرسوزي من الأدّلة على ظهور الأمَّة العربيّة في الملمّات مدلّلاً على أنّها ليَستْ حديثةَ النّشأة، وما أكثرَ ما كانَ يذكرُ معركةَ ذي قار الَّتي انتصر فيها العربُ بوحدتهم وتكاتفهم! فإذا جاءَ الإسلامُ كانَ أجلُّ ما حقَّقه وحدةَ العرب أمَّةً واحدةً ولساناً واحداً ورسالة تاريخيَّة للعالم أجمعين.

- رأى الأرسوزي بنظر ثاقب أنّ تفاوتَ الأمم في تقدُّمها، ودورُها يتلخّص بقوله:

تتفاوتُ الأمم بتفاوت تكوينها؛ لكلّ أمَّة من مستوى معين رسالةٌ تفصحُ عن حقيقتها، وتمكّنها من الاشتراك مع غيرها من الأمم في إيجاد عالم إنسانيّ يتقدّمُ باستمرار عن طريق تحقيق إنسانيَّة الإنسان، وتتجلَّى هذه الإنسانيَّة في الحريَّة والمساواة والمعرفة.

ملامحُ الإنسان العربيّ الأصيلة:

تنطوي نفسُ الإنسانِ على قانون أخلاقيّ، بينما تنطوي علاقاتُ المواطنين على القانون السياسيّ، وحسبما تكونُ الغلبةُ في الأعمال للوجدان الأخلاقيّ أو للعقل، يكون الإنسان متّصفاً بصفة الأخلاق، وإذا كانت الغلبةُ للمساومة تدخلُ الأعمالُ بابَ التّجارة والسياسة.

كان الأرسوزي دائمَ البحث عن ملامح الإنسان العربيّ الأصيلة بالرجوع إلى ينبوع وجوده، في الجاهليّة وفي صدر الإسلام، حيثُ يقومُ المجتمعُ العربيّ على الاهتمام بالأنساب، أي أنّ المجتمعَ يقومُ على القرابة لا على المصلحة، كما كان يحلو لبعض الباحثين عن وحدة بلدانهم القوميَّة أن يجدوها في وحدةِ المصالح؛ فالانتساب إلى أب مشترك، والتَّكافلُ بينَ الأخوة، هما

قاعدة المساواة بينَ الأقارب الَّتي تقوم على مكارم الأخلاق.[٧]

يقارنُ الأرسوزي بينَ قيم الجاهليَّة، وما آلت إليه فيما بعد؛ كانتْ أخلاقُ العربِ في الجاهليَّة فطريَّة، وشعارُ تلك المرحلة المروءةُ الَّتي هي أسمى الفضائل، وهي تعني الإقدامَ على جليل الأعمال.

أيُّ أمَّةٍ غير العرب حاول كلٌّ من أبنائها أن يكونَ بطلاً وشاعراً، ينشدُ أعماله ومناقب أجداده، كما فعل العرب في جاهليّتهم؟ يتساءل الأستاذ، ويقول:

أليسَ من الغريب اليوم وقبله في مراحل الانحدار، أن يجنحَ العربيُّ إلى الانزواء والعزلة والانطواء على النّفس في قوقعة تقاليد وغرائز...، ويرى في كلّ جديد بدعةً، ويسير بعكس الحياة؟

٧- المجلد الخامس: ص ٤٢٥ .

لم يفارقه هاجسُ عودة الأمَّة من غيابٍ فوّتَ عليها فرصَ التَّقدُّمِ والانخراط في عالم المعرفة والعمل والعلم والصناعة.

لا بدَّ من الإحاطة بالمرحلة التَّاريخيَّة الَّتي نعيشُها؛ مرحلة العلم والصناعة، كونها تقومُ على الاقتصاد والسياسة، وتتلازمُ فيها المعرفةُ والعمل. ويحدّد بعضَ ملامحها بوجهتين:

- الأولى: إنسانيَّة تقوم على العمل والصناعة، ومجالُها العقل.

- الثانيَّة: يلخّصها بكلمة ديمقراطيَّة، ومجالُها الوجدان.

وظلَّ الأرسوزي دائمَ التَّفكير في البطولة، يقول:

«تكونُ الذاتُ أعلى مراتب الوجود الإنساني، وتتحقَّقُ

عندما يحوّلُ الإنسانُ الحقيقةَ الكامنةَ أو المضمرة فيه إلى دافع، أي عندما تتجسّدُ الحقيقةُ في البطل ويصيرُ ذاتاً».

- ألم يُقم العربُ دولتَهم على أسس من إقامة العدل، وقام العربُ بنشر رسالتهم في العالم؟ يقولُ لكلّ شعبٍ الحقُّ في تقرير مصيره، وأن يعيشَ في مجتمع، كلُّ فردٍ فيه يحترمُ الآخرين، وله الحقُّ في ظروفٍ تُمكِّنه من ممارسة حريته.

- تناول في بعض مقالاته مشكلةَ التَّعصُّبِ الطائفيّ، ودعا إلى نبذها، وبيّنَ مَخاطرَها على نموّ الشُّعور القومي، كما بيّن دورَ المدرسة والأسرة في نبذها والتحرُّرِ منها.

- كان يحذّرُ دوماً من انتشار المدارس الَّتي تنشئها بعضُ الجهات المرتبطة بالدّول الاستعماريَّة، والَّتي كانت تشجّعُ الطائفيَّةَ الَّتي تشوّهُ العلاقاتِ بينَ أبناء الأمَّة.

خاتمة

الأرسوزي مفكّر عربيّ قوميّ ظلَّ إلى آخر يوم في حياته متابعاً، شرحَ فلسفته ونهجه في الحياة، مقدّراً البطولةَ، داعياً إلى وحدة العرب، محرّضاً على الخروج من حالات التَّأخُّر والإحباط، داعياً إلى التَّمسُّك بالعروبة وإغنائها بمعارف العصر. لم تنقصه الجرأة، وقد تحدّى قوى الاستعمار الفرنسي في سورية، كما ناضل سياسة التَّتريك والاعتداء على لواء إسكندرون. وظلَّ صريحاً أمام أيّ موقف يُجلي غوامضه، ويسخر من المواربين والمنافقين ودعاة التَّفرقة ومناصري الاستعمار ومنفذي مآربه.

إسماعيل الملحم:

- عضو جمعية البحوث في اتحاد الكتاب العرب.

من مؤلّفاته:

١- العروبة، دراسة في وحدة الشخصيّة القوميّة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

٢- الخصوصيّة في الثقافة القومية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

٣- التجربة الإبداعيّة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

٤- جدل الثقافة والسياسة في الفكر القومي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

٥- مُساءلات الثقافة في الإبداع والفلسفة والأدب، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

٦- تنشيط قدرات الطفل على التعلّم، دار علاء الدين، دمشق.

٧- الإنسان والتربيّة في عصر المعلومات، دار علاء الدين، دمشق.

٨- سميح القاسم شاعر الأسئلة الكبرى، دار كيوان، دمشق.

٩- معركةُ المزرعة ملحمة السلاح الأبيض، دار علاء الدين، دمشق.

صدر من سلسلة «أعلام ومبدعون»

الرقم	اسم الكتاب	المؤلف
١	حنّا مينة	د . شوقي المعري
٢	سهيل عرفة	محمود يوسف
٣	محمد الفراتي	أسعد الديري
٤	عزيزة هارون	عيسى فتوح
٥	جودة الهاشمي	د . هشام الحلاق
٦	تيسير السعدي	وفيق يوسف
٧	أمين بن عبد العزيز الخياط	أحمد المفتي
٨	د . مسعود بوبو	د . محمد قاسم
٩	د . عبد الكريم اليافي	جمانه نعمان
١٠	النهضوي الزهراوي	خليل البيطار
١١	محمد وليد مارديني	إيمان مارديني
١٢	عبد الرحمن الكواكبي	محمود يوسف
١٣	نديم محمد	منذر يحيى عيسى
١٤	قمر كيلاني	لينا كيلاني
١٥	محمد الماغوط	ناظم مهنا
١٦	الدكتور سامي الدروبي	بثينة الخير
١٧	الفراهيدي	بيان الصفدي
١٨	رياض الصالح الحسين	نذير جعفر
١٩	زكي الأرسوزي	إسماعيل الملحم